مـدن مـخـفـيـة

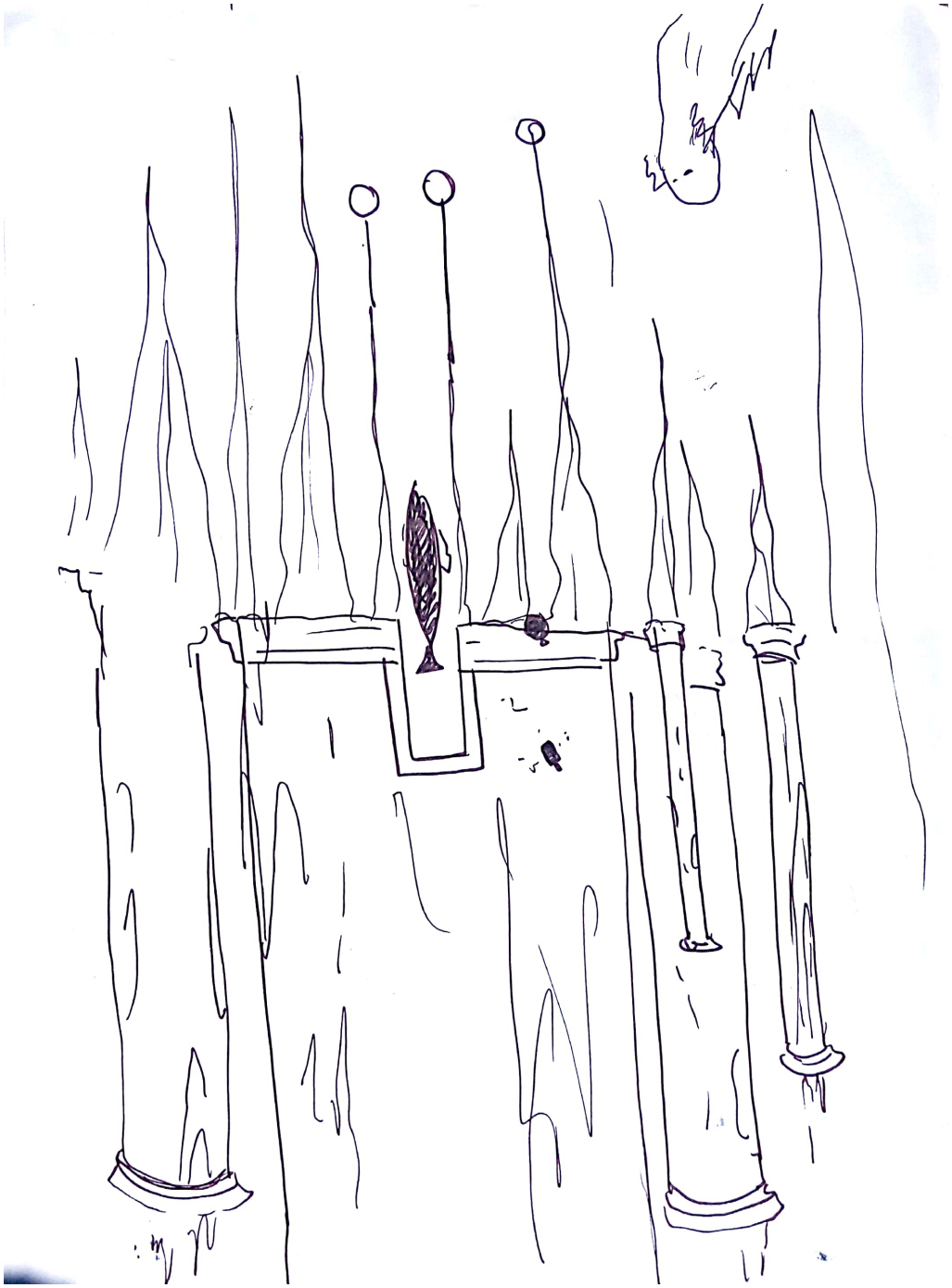

مدينة العواميد

أخرج اليوم من الشرفة الخلفية للمنزل، تقول أمي أن ألملم الأكياس العالقة على جدرانه. إنها ليست أكياسا فقط؛ قوارير خمر وفواكه وبقايا عظام رميت البارحة على حينا؛ علقت في كل فتحات المبنى المتهالك. كان هناك حفلة كبيرة لاستقبال الربيع في مدينة العواميد.
يكسوا السما طبقة سميكة من الزيت والموج هادئ سنبقى لأيام مغلفين بهذا حتى ينظف البحر نفسه. أحمل ما استطيع حمله من القمامة، أربط الكيس الكبير إلى خاصرتي، وأبدأ بالسباحة للخارج. ربطت غلاصمي بسنسال سأضعه في يدي، لن أكررتجربة فقدان الغلاصم والنوم داخل العمود مرة أخرى. ينتظرني أبي كالعادة لنتناول وجبة المرجان الأزرق، لكن رغبة جامحة قديمة بي دفعتني لتغيير طريقي والتوجه إلى ساحة مهرجان الربيع الذي لا نلق منه سوى القمامة التي ترمى علينا في نهاية الحفلة.
أركض حتى أوفر الوقت. على مدخل السوق مشنقة معلقة، الحبل ضيق لا يبدو منسابا لسكان العواميد ذوي الرؤوس الضخمة. يطلون بقامتهم القصيرة ولونهم البرتقاني على الشرفات الزجاجية، يمارسون الغناء الصباحي حتى وصول وجبة السمك الأولى.
الشمس تقترب كل يوم أكثر لا تراب في الخارج، لا ثمار لا أشجار، يأكلون السمك حتى ينفذ من البحر، قد يأكلوننا لاحقا.

مدينة القوس

جلس في الساحة خارج المسرح وأخذ يتأمل الحديقة في ذاك الوادي ثم فجأة أخذ يسب وينضر إلى فوق. انه يسب الأعمى الذي يتبول من فوق الجسر، لا يعلم أن الأعمى لم يتقبل فكرة أن أسفل الجسر والذي هو عبارة عن مصاريف المياه قد تحول إلى مسرح.عمي قدور لا يزال يتذكر أن الفرنسيين قد جعلوا من أسفل الجسر مصاريف مياههم وفضلاتهم لا يزال يزور المسجد الكبير في وسط المدينة. يتنقل بصعوبة كبيرة عبر الجسر الواصل بين الحيين الفرنسي والعثماني ويرفض أي مساعدة الا تلك التي تأتيه من عصاه التي يطرق على حديد الجسر بها. تلك العصى التي تسقط قبله في أي فخ نصبته له الحياة فيتجاوزه. تلك العصى التي تسمعها أحيانا وأنت تشاهد مسرحية بمسرح القوس الموجود تحت الجسر.تماما بين أقدام عمي قدور ومصاريف المياه، ذلك المسرح الذي يكسر جميع القواعد يجمع أهل حيين فقدا الثقة في بعضهما:

أأهل الحي الشعبي فقراء يعتبرون أهل الحي الفرنسي خونة كانوا حد ما عن الإحتلال الفرنسي وأهل الحي الفرنسي يعتبرون أهل الحي العثماني جهلة وأغبياء يعكرون جو سعادتهم.
أدرك أن من تبول عليه أعمى فأخذ يضحك ثم حمل محفظته وتوجه إلى "زنيقة العبيد" بالحي العثماني، ذلك الزقاق الذي يباع فيه الخمر في بيت إحدى العاهرات القدامى، ذلك الزقاق الذي طالما شهد مآسي، زقاق سكنت جواري العثمانيين وعاهرات الفرنسيين ومن بعدهم الأفارقة السود ثم تحول إلى بيت دعارة مدني في الزقاق الذي إن دخلت إليه بتول فلن تخرج كذلك.ملأ حقيبته وبللها بماء بئر في البيت الذي اشترى من كي تبقى باردة
االأبار هنا في كل بيت والنافورات أيضا والأبواب المقوسة والزخرفات والحمامات المعدنية. إنها منطقة غنية بالمياه الجوفية ولذلك لم تسلم من يدي الرومان أيضًا. أشك أن أشيل قد ولد هنا فقد رمي وسط العنب وأعياد الكروم والخمور في هذه المدينة عادة لا تخفى عن زائر.
ما هذا التناقض؟ مدينة محافظة منتجة للخمور؟
أم أهو مخطط المستعمر للقضاء على الهوية والثقافة؟

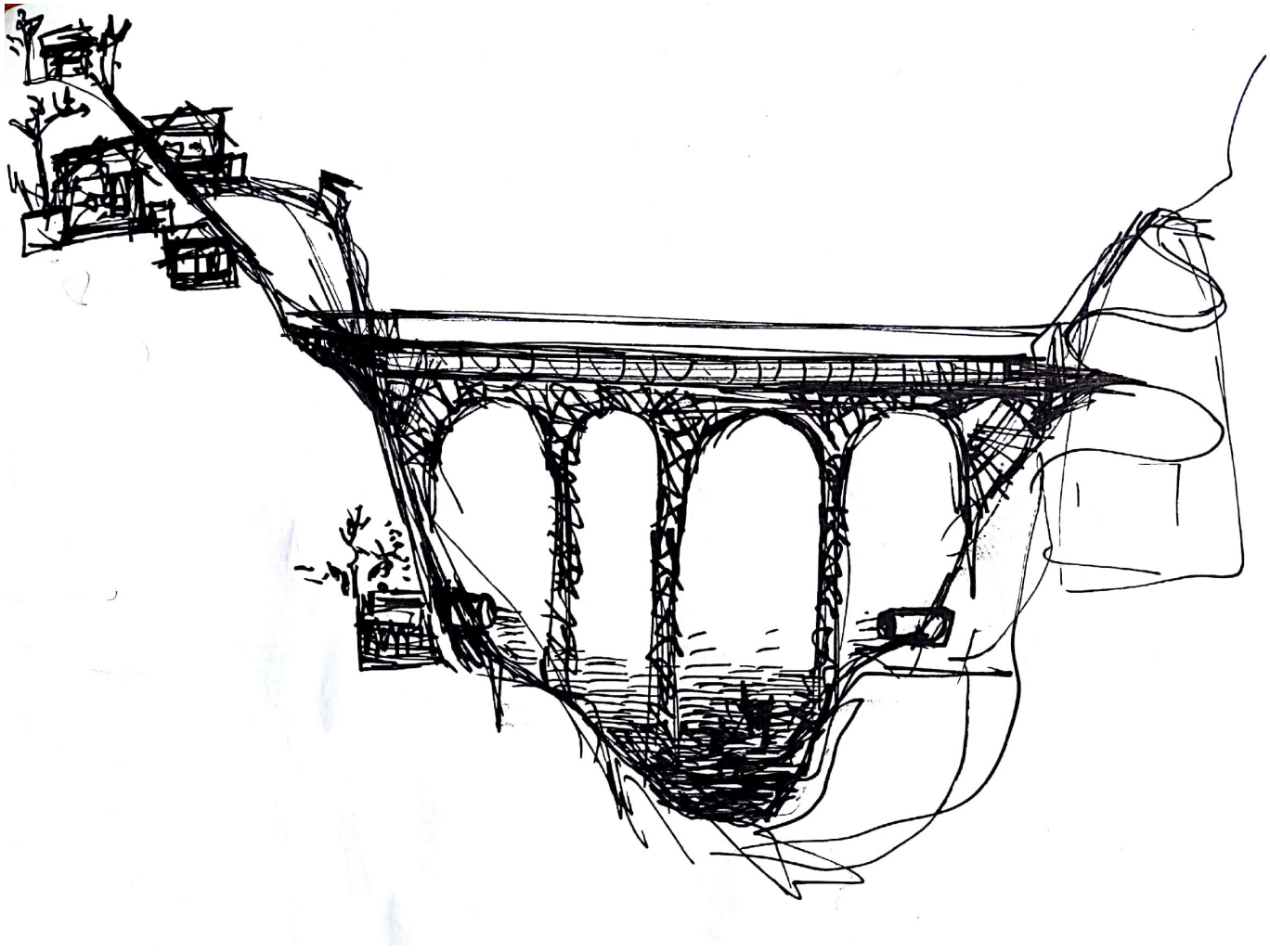

مدينة الكلاب

أقبلتُ على مدينة لاول مرة فبدت لي من بعيد كتلة متراصّةً من أبنيةٍ شاهقةٍ بُنية اللون. وكلَّما اقتربتُ منها تلاشت المزارع والخضرة من حولي، وخفتتْ أصوات الطيور، وطغى ضجيجُ المعامل المنتشرة في أطراف المدينة، واتشحت زرقة السماء بدخانٍ أسودَ يتصاعد من مداخن المصانع.

كاد أوَّل شارع ولجته في أطراف المدينة يخلو من المارة. أردتُ أن أسأل أحدهم عن نُزُلٍ أسكن فيه. ولكنِّي لم أجد أيَّ فرد في ذلك الشارع سوى بعض السيّارات التي كانت تمرق مسرعةً بجانبي وتوشك أن تُلقي بي أرضاً. سرتُ طويلاً قبل أن أصلَ تقاطع الطرق. وهناك رأيت شرطيّاً ببزَّته الخاكيَّة، يقف على منصّة في وسط الساحة، وهو يرفع يدَيه يميناً وشمالاً لتنظيم حركة مرور السيّارات. وأقعى إلى جانبه كلبٌ ضخمُ الجثةِ حسبتُه واحداً من تلك الكلاب البوليسيّة التي سمعت عن عجائبها. لم أجرؤ على الاقتراب من الشرطيّ أو طلب مساعدته، لأنَّه لم يأبه بي، ربَّما بسبب انهماكه في عمله.

الشارع خالٍ تقريباً من المارة، والسيّاراتُ فيه نادرة. واصلتُ سيري وأنا أحرص على المشي على الرصيف خوفاً من السيّارات التي قد تنطلق في وسط الشارع. وعندما سمعتُ ضوضاء قادمة من الخلف تُنْبئ بقدوم إحدى هذه السيّارات، أدرتُ وجهي إليها فلمحت رجلاً يقود سيّارته، وعلى المقعد المجاور له كلبُ يقعد على رجليه ويطلُّ برأسه من النافذة الجانبيّة نصف المفتوحة.

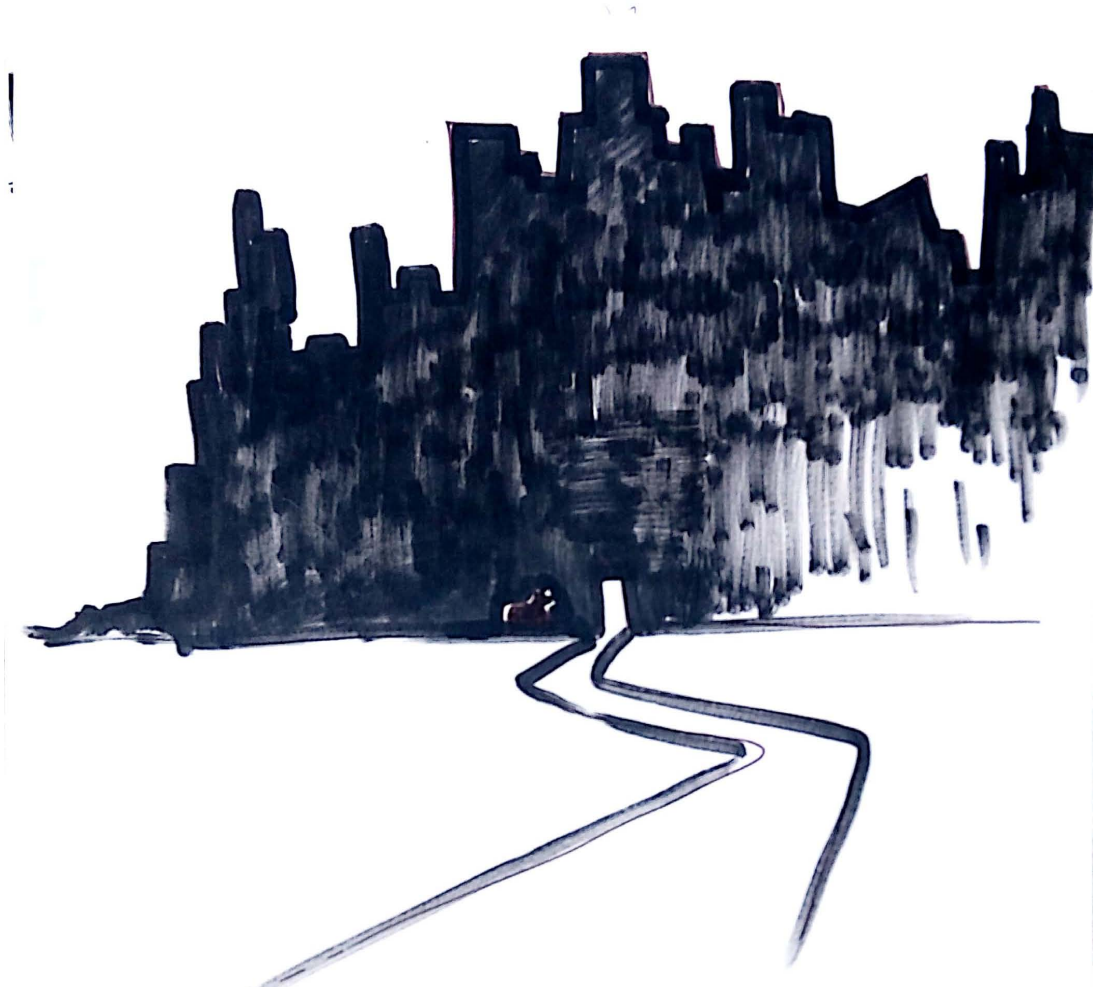

شاهدت على الرصيف امراة تسير في اتجاهي وهي تدفع عربة أمامها، لا شكَّ أنَّها تحمل رضيعها في تلك العربة. وعزمتُ على أن أرجو منها أن تدلّني على نُزُلٍ قريب. وعندما اقتربتُ مني رأيتُ في العربة كلباً صغيراً ذا شعر طويل أشبه ما يكون بالقطة وقد أراح رأسه على الوسادة داخل العربة وغطّ في إغفاءة هنيئة. غلبتني الدهشة وهلةً، وعندما أردتُ أن أتوجّه بسؤالي إلى السيدة، كانت قد ابتعدت بعربتها ولم يعُد من اللائق أن أتبعها لألقي عليها بسؤالي.
أقْبلَ رجلٌ وهو يقود كلباً متوسطَ الحجم بسلسلةٍ تنتهي بطوقٍ جلديٍّ على عُنق الكلب. القيتُ السلام على الرجل وتوقفتُ لأرجوه أن يدلّني على نُزُلٍ قريب أستطيع أن أقيم فيه. ولكنَّ الرجل لم يردّ التحية، ونظر إليّ باستغراب، ومضى في سبيله دون أن يتيح لي فرصة السؤال.
واصلتُ سيري وأنا أتطلَّع إلى المنازل المُمتدّة على جانبَي الشارع، وهي موصدة الأبواب، ولكن بعض نوافذها مفتوحة ومحميَّة بمشبّك حديديّ. ودفعني حبُّ الاستطلاع إلى إلقاء نظرة على بعض تلك النوافذ المشرَعة. فرأيت من خلال إحداها صالةً مؤثَّثةً بمجموعةٍ من الأرائك الفاخرة، وقد استلقى على إحداها كلب ضخم أسود أفطس الأنف، وما إن التقت نظراتنا حتّى اكفهر وجهه، وكشّر عن أنيابه، وتأهَّب للنباح والهجوم عليّ. ابتعدتُ مُسرعاً عن النافذة بقلبٍ خافق.
لم أستطِع مقاومةَ حبِّ الاستطلاع في داخلي وأخذتُ أنظر إلى النوافذ المطلَّة على الشارع. فألفيتُ معظم الغرف فارغة لا أحد فيها. ولكنَّني رأيت في داخل إحدى هذه النوافذ المفتوحة كلباً يستحمُّ في المغطس وقد انهمكت امرأة في غسله بالصابون والماء، ورائحة العطور تفوح عبر النافذة.

وتوقفتَ امام واجهة زجاجية كبيرة لإحدى المحلات التجاريّة وقد عُرض فيها عددٌ من الجِراء (صغار الكلاب)، وهي تلعب مع بعضها أو تأكل طعامها أو تَلِغ في آنية الماء الموضوعة بعنايةٍ في زاويةِ مكانِ العرض. كانت كلّها نظيفة لامعة الشعر.
واصلتُ سيري في الشارع، وكلَّما اقتربتُ من وسط المدينة ازداد عدد المارَّة وكثرت المحلات التجاريّة. يبدو أنَّني لم أفلح في التحدُّث إلى أيّ واحد من الناس، رجلاً كان أو امرأة. فكلُّ واحد من أولئك المارَّة كان يصطحب كلباً يُشغله عن أي شيءٍ آخر. بعضهم يجرُّه وراءَه بسلسلة، وبعضهم الآخر استغنى عن السلسلة وراح كلبه يتبعه أو يسير إلى جانبه أو أمامه. أبادرهم بالسَّلام فلا يردّون عليَّ بل ينظرون إليَّ بشيءٍ من الاستغراب ثمَّ يمضون مبتعدين عني.
وأخيراً تأكَّد لي أنَّ أحداً لن يتحدَّث معي. ولا بُدَّ لي من الاعتماد على نفسي ومحاولة قراءة اللوحات المعلَّقة على البنايات لَعلّي أعثر على نُزُل ، وأن هذه المدينة تعتبر مدينة الكلاب ..

مدينة الغرباء

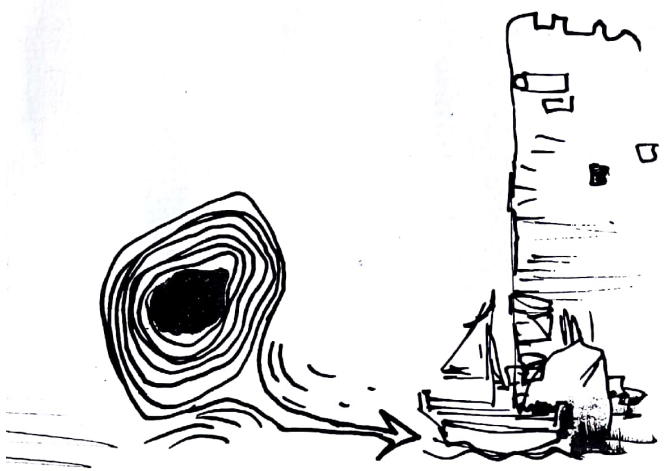

تركت الجزيرة و ابحرت شرقا هربا نت النزاع القائم هناك.
إرتطم القارب بحائط حجري قديم كتب عليه اسم عائلة من العصر المملوكي و التاريخ يعود غلى ما قبل 1000 عام. أثار فضولي صوت قادم من خلف الحائط .. دهشت لوهلة .. ثم نظرت من النافذة الصغيرة جدا لأجد إمرأة قد رمت بالتو بتلك القماشة التي تستخدم لمسك الأواني الحارة .. على المدفن.
لقد رست على مدينة للأموات تعج بالحياه.
سلكت الطريق المؤدي إلى ما خُيل لي أنه سلالم .. كنت قد شعرت بجوع بعد عناء الرحلة و جذبني رائحة طعام قادمة من تحت السلالم ..

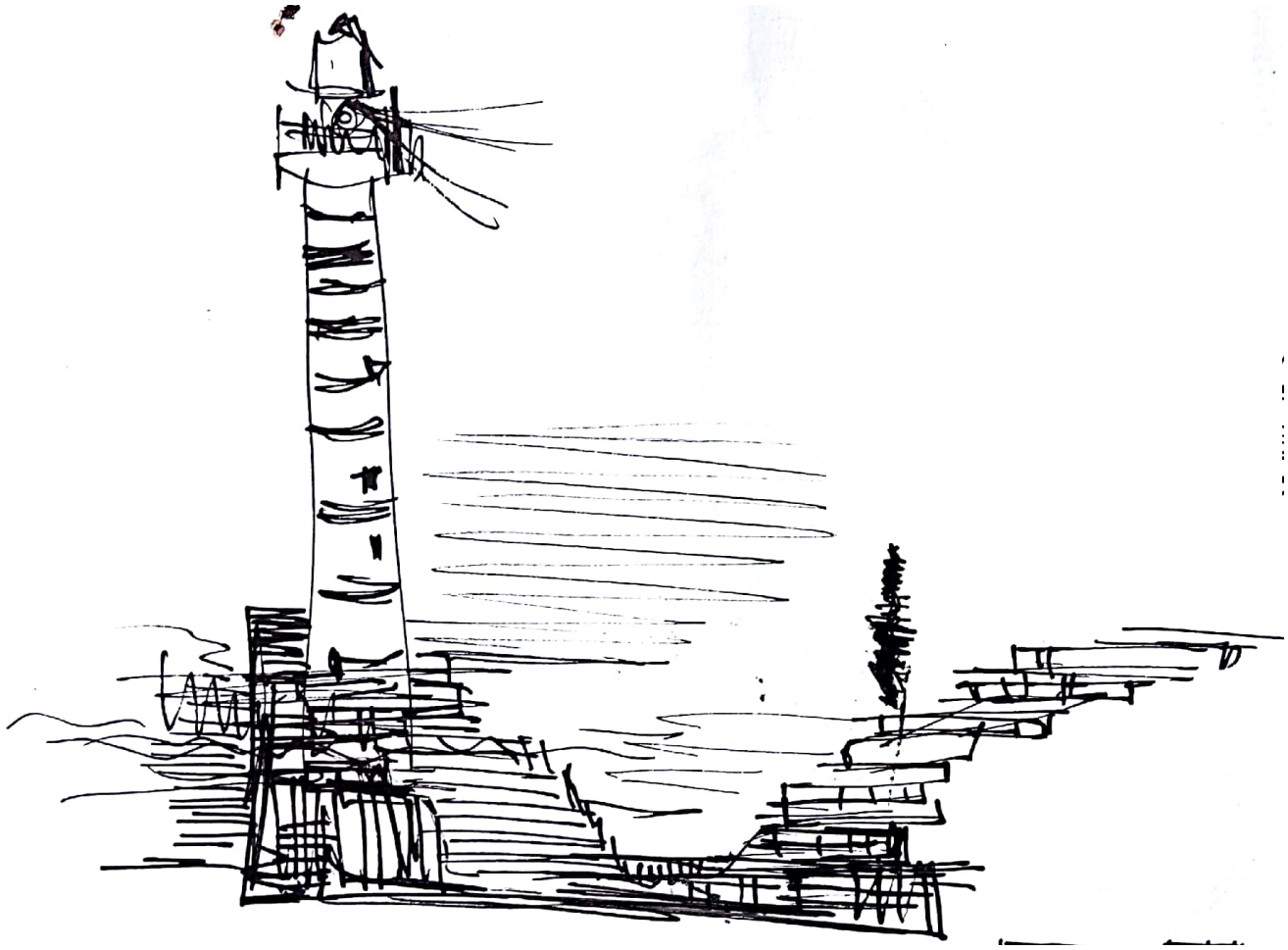

دخلت تحت تلك السلالم لأجد نفسي في فسحة سماوية مشمسة و هناك أشخاص يبدو أنهم أغراب مثلي .. جلست على أحد الطاولات المبعثرة في الأطراف .. لم يعرني أحدا إنتباها .. ربما كان السبب حديثهم عن تلك الشاب الذي إختفى في المنزل في أعلى السلالم.
فوجئت بوجود منارة بيضاء و سوداء ضخمة متوقفة عن العمل .. و حولها بعض البيوت فرنسية الطراز .. كانت هناك إمرأة في الأربعين من عمرها تتحرك بسرعة و تضع أغراضها في التاكسي المتجه إلى المطار .. سألتها عن مكان أبيت فيه ,, و بعد طول نقاش ..تم الإتفاق على أن أبيت بمنزلها إلى أن تعود مقابل إيجار.
صعدت إلى المنزل الكائن في الطابق الثالث أول ما لفت نظري تلك الشرفة الكبيرة المطلة على البحر و الماره و المدافن و الجزيرة و لكن..
كانت الجزيرة قد تغيرت ملامحها و أصبحت مدينة ذات طابع عثماني..
على جانب الشرفة في الداخل .. كان هناك كنبة .. تُرك عليها رواية يلعب الريح بصفحاتها.. اسم الرواية "شريد المنازل"

مدينة البحر

في لحظات ظهيرة كتلك وبعد عمل شاق بالميناء كان علي أن أغادر الشارع الرئيسي بضوضاءه وزحامه. انعطفت يمينا تجاه شارعي المفضل – أعرفه بمحل الأعلام على ناصيته- وبرائحة المخبوزات الطيبة التي تأتي عن يساري. ”سان جورج“ على مدار مائة عامة أو يزيد يقدم لنا هؤلاء الخبازون المهرة مخبوزات فرنسية طيبة. أشتري باتي وكرواسون بالجبن وأكمل الطريق.
يقطع طريقي بائعون الملابس بفرشهم على جانبي الطريق فأتفادهم وأتظلل من الشمس ببواكي البيوت الممتدة بانتظام في هذا الشارع. يحكي الشارع في تفاصيله تاريخ المدينة متعددة الثقافات فهذا بيت نحت صاحبه اليوناني وجوه أولاده وزوجته على مدخله, وليس بعيدا عنه كتابات على بلاط الأرضية بالفرنسية بار وريستران تذكر ببار قديم صار محلا للمفروشات المستوردة. أمر بجوار سوق البلدية القديم ”مارشيه مونيسيبال“ وأتأمل على الجهة الأخرى بازار الأسماك أقامه عباس الخديوي ورسم أعلاه الهلال والثلاث نجوم وتاريخ البناية مدونا..
أعبر الطريق بمجرد أن ألمح المقهى بكراسيه الخشبيةالمرصوصة بانتظام على ناصية الشارع. يحتاج هذا الجبن لكوب من الشاي وأحتاج كليهما وأن جالسا متأملا جمال هذة البيوت بتراسينتها المميزة و يتحسس وجهي نسمات هواء لطيفة يمنحها البحر لسكان المدينة وعابريها.

العدوى

صحيت الصبح على رائحة الزبالة من ناحية الشارع جانب البيت
مغرقة البيت – أهرب للبلكونة أغرق نفسي في الزرع (زرعته مخصوص لأهرب من إزعاج المدينة)، أشم رائحة الريحان وأشاهد زهور ست الحسن المتسلقة على جدران الشرفة -ولكن يجب علي أن أتركها لأبدأ عملي فأنا أحب الرسم في الأماكن العامة.
أنا اليوم في القهوة لاني استيقظت على منزل لا غاز فيه وأبو احمد لم يفتح الدكان بعد، ولا أستطيع تخيل بداية اليوم دون قهوة
يتقابلان عند القهوة فيفاجئا أنها لم تفتح بعد، يقرران أن يبحثا عن قهوة أخرى وهما يسيران يجدان صف من أعمدة النور.
فتقول انها تذكرها بطابور العبيد المسلسلين
يقول أنها تشبه مكسر السفن عند المرفأ، ثم تهب رائحة محل الدجاج فيقول "أد إيش بشعة "
كم تشبهنا تلك الطيور، فاكرة نفسها حرة ومحبوسة في قفص.
يمرون على البنايات فيقول اني أرى تلك البنايات مثل الجبال ينخرها السوس.
إقتربنا من القهوة ولكن يوجد حاجز قبلها، هي تمر ولكن هو يحتجز,
هي: هذا الحاجز مثل فلتر المياه
هو: لكن المياه تخرج نظيفة من الفلتر لكن الواحد يخرج متسخا من الحاجز.
(نصل على القهوة، كلمة سر الواي فاي "ببوس إيدك(ترجي)"
يقول: ما فيك تاخد حاجة في هذه المدينة من غير ما تترجى أو تتذل.
زحمة وضجة وسيارات والنت بشع.
هي تتعصب وتنهاروتبكي وهو عندما يسأله أحد عنها يقول: المدينة عديتها.